حول ما كتبه اللبنانيون في ديار الاغتراب

بقلم الدكتور جميل جبر

توطئة مغامرة الاغتراب اللبناني لم تكتب بعد في فصول متلاحمة . انما هنا انعكاسات مشرقة في آثار اخوان لنا انتشروا منذ فجر التاريخ . تحت كل سماء : منها ما جاء سرداً طريفاً لتجربة حية ، ومنها ما تجسد في شعر رقيق يعبر عن امل ولوعة وذكرى ومنها ما اتخذ صيغة التزام لقضايانا الوطنية ، ومنها ما تجاوز التجربة الفردية الى قضايا كل انسان في كل عصر وزمن .

ويعنينا من هذه الآثار ، في بحثنا الموجز ، ابرز ما خطه القلم في كل موضوع ولغة ولون ادبي .

ولكن لا بدّ لنا في البدء من تحديد و المغترب » . انه حسب العرف الدولي ، كل شخص ترك بلاده واقام خارجها ، اما بشكل دائم واما لمدة طويلة ، تلبية لحاجات رآها ضرورية .

والمغترب اللبناني هو امين قصده هذا التعريف وكل متحدر من صلبه حتى ولو اكتسب جنسية جديدة .

وهكذا اعتبرنا امين الريحاني مغترباً رغم انه قضى عمره موزّعاً بين لبنان والخارج ، وجورج شحاده مقيماً مع ان نتاجه ظهر بالفرنسية وفي باريس لان اقامته في الخارج موسمية قصيرة . على اننا نظرنا في الحالة الاولى الى النتاج الذي وضع او استوحي في طور الاغتراب .

دراستنا هذه لا هي احصائية شاملة ولا هي اطروحة ضخمة تستنفد الموضوع اللامتناهي الابعاد ، بل هي نظرة عامة على اهم ما كتبه المغتربون منذ ابعد العصور حتى اليوم وقد توقفنا بنوع خاص عند المئة سنة الاخيرة لاتصال نتاجها بواقعنا .

وقد راعينا في تنسيم البحث مناطق الاغتراب بقطع النظر عن لغة التعبير وعن التسلسل التاريخي فبدأنا بالهجرة الى اوروبا وهي الاولى زمنياً . ثم الى مصر ثم الى العالم الجديد وسائر الاقطار البعيدة .

عسى بحثنا هذا يكون مدخلاً ، سهل المنال ، الى دراسة نقدية مفصلة جامعة ومفهرسة ومبوبة وحافلة بالمراجع والمصادر والتواريخ .

في اوروبة

اللبناني ميّال بفطرته الى السفر ، الى المغامرة ، الى ريادة المجهول ، فكأنه ، وقد خلق على رقعة صغيرة من الارض ، يأبى ، انتقاماً من قدره ، ان يكون مقره حدود غير حدود المعمور ولطموحه عنان الا المستحيل . وما اكتشافه اختراف وترويضه البحر للملاحة وتوسله النجوم لتوجيه الا تلبية لهذه النزعة . وما ابتداعه الابجدية سبيل حوار بين البشر الا ليذلل بعض اخطار مغامرته الكبرى . وهكذا كانت الهجرة الفينيقية اولى هجرة سجلها التاريخ . واستمر السفر بالنسبة للبناني من مستلزمات الحياة ، على تعلقه بارض الجدود .

لا شك ان الشأن الاقتصادي كان من الدوافع الرئيسية الى الهجرة اللبنانية منذ فجر التاريخ لكنه قلما انفصل عن الشأن الثقافي الاطلاعي تلبية لحاجتي الجسم والعقل . ويذكر المؤرخون ان الفينيقيين في العهد الهلنستي ، اي بين فتح الاسكندر والفتح الروماني ، اسهموا اسهاماً بارزاً في الفلسفة اليونانية ، لا سيما في مذهبيها الرئيسيين : الرواقي والابيقوري . ومؤسس المدرسة الاولى نفسه زينون ، هو فينيقي الاصل ، قبرصي الولادة ، (٣٣٥ — ٢٦٤ ق. م.)[1] وقد كتب باليونانية واللاتينية شارحاً نظريات افلاطون في السعي الى الاخوة الشاملة والسلام العالمي في ظل الدولة المثالية . وكان يولي في مذهبه الفضيلة والحقيقة المقام الاول فيرى ان من واجب الانسان ان يتحرر من نوازع طبيعته البدائية ليسمو الى الكمال . وكان زينون نفسه مثالياً في تصرفه فانعكست شخصيته على تفكيره .

لقد كان على حد قول اسماعيل مظهر « فيلسوفاً يونانياً بالواسطة وذا مزاج فينيقي » ويقول عثمان امين : « ان كان مضمون تعاليمه يونانياً الا ان نغمة صوته اقرب الى نغمة الانبياء » . كان يشعر انه مكلف برسالة يريد ان يؤديها وان يأخذ الناس بها كاملة . فكان لا بدّ له ان يساير العقلية اليونانية المولعة بالاستدلال والجدل والاقناع .

قال مثلاً : « العقل والحكمة يقتضيان ان تمجد الآلهة وليس من الحكمة ان تمجد اشياء ليست موجودة » . وهذا رأي الناقد الفرنسي ارنيم واكثر دارسي الرواقية .

(١) لم نشر هنا الا الى الكتاب الذين يثبت نسبهم الفينيقي . ان الذين ما زال نسبهم موضع شك واقتراض مثل هيرودوس فقد اهملنا ذكرهم رغم ان بعض المؤلفين مثل برار يردون اصلهم الى فينيقية .

قسم زينون الفلسفة الى فروع ثلاثة متكاملة هي : المنطق . علم الطبيعة والماورائيات . ومن تعاليمه ان الله هو مبدأ الكون الفاعل وان النفس نفحة منه . اما الشهوات فهي في النفس امراض ان لم تتغلب عليها فقدت ذاتيتها وحريتها . وكان لافكاره هذه اثرها في تاج ديوجين وسينيك .

واشهر ما كتبه زينون « المبادئ الجمهورية » ، « الحياة في الطبيعة » ، « الواجبات والجنس البشري » ، و « الشهوات »[1] .

ونهج بيوثس الصيدوني (القرن الثاني ق. م.) نهج سلفه فطوّر الرواقية ورفض الاعتراف بنظرية حلول الله في كل اجزاء الوجود بل في بعضها .

وفي سنة ١٥٠ ق. م. ولد في صيدا زينون اخر تولى المدرسة الابيقورية في اثينا واثار اعجاب شيشرون .

وفي سنة ١١٠ ق. م. قاد ديودورس الصوري المدرسة المشائية في أثينا وحاول ان يوفق بين الرواقية والابيقورية . كان يرى ان الخير الاعظم هو في الجمع بين التفضيلة وعدم الالم في اطار الحرية الخلاقة وقد تميّز ادبه بالتنوع على غنى الصور والاحاسيس .

وجلّى الكثيرون من الأدباء الفينيقيّي الاصل في الخطابة المرتجلة وفي الادب الساخر وفي الشعر الاخلاقي كما تدل هذه المقطوعة الشعرية على ضريح قديم نظمها انتيباتر الصيدوني المولود في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد :

« لماذا يبكي اولادنا ؟ الآلهة ذاتها لا تنجي اولادها من سنّة الموت » .

وكان انتيباتر هذا ابيقوري المذهب . ومن مأثور اقواله : « دعنا نشرب فالحق الحق هو ان الخمر مطية الطريق . والسائرون على اقدامهم انما يختصرون الطريق الى جهنم » . ولعله اول من ذكر عجائب الدنيا السبع . وقد انطوت مجموعة الروائع اليونانية (الانتولوجيا) على بعض مختارات من شعره . اما سميّه الصوري ، معلم كاتون ، فقد انصرف الى الفلسفة في خط رواقية زينون .

ومن جبيل اشتهر المؤرخ واللغوي فيلو (٦٤–١٦١) ببحوثه في اليونانية . الا ان آثاره ضاع بعضها ولم يبق منها الا نزر اشار اليه بومبيوس في بحثه في تاريخ الكنيسة المسيحية . ويبدو ان فيلو استند الى بحوث مواطنه سنكونياتون في الميثولوجيا وعلم نظام الكون والدين وتاريخ المدن الفينيقية . ومما يقوله هذا في نشأة الكون :

(١) بنى له اهل اثينا ، اقراراً بفضله ، ضريحاً من السيراميك ونصبوا عليه تمثالاً من ذهب .

« كانت في البدء ريح قائمة كدرة عاصفة منتشرة في كل مكان . وبعد حقب من الدهر شغفت تلك الريح بروح الحياة فيها . فاقترنت بها حباً برصاخا ، فنشأ عن ذلك الاقتران مادة هلامية . او سائل كدر . ومن هذا السائل الكدر ولدت جرثومة الحياة ، ونشأ الكون » .

اما فيلو فقد كتب عن الدين الجبيلي وذكر انه كان قائماً على اساس البعث والفداء وبما قاله في هذا الصدد :

« من عادة الاقدمين انهم كانوا في نكباتهم يقدمون الاطفال قرباناً للآلهة يسترضونها ويسترحمونها فلا تهلك النكبة الواحدة جميع الناس » .

وفي حقل البحث العلمي اشتهر عيدئذ مارينوس الصوري مؤسس الجغرافيا الرياضية ويعتبر اول من وضع خطوط العرض والطول لتحديد الموقع الجغرافي الدقيق ممهداً السبيل امام بطليموس .

وبرز في الأدب اليوناني كذلك دوروثيوس الصيدوني (القرن الثاني) . ومن اهم آثاره ملحمة حول اسرار الكواكب وعجائبها . ومكسيموس الصوري (القرن الثاني) معلم مارك اوريليوس وصاحب البحوث الماورائية المبتكرة . كان يقول بالله اعلى غير منظور وبالوهة النفس ويعتقد بان الشياطين وسائل تستخدمها العناية الالهية لفرض حيبتها على البشر . ولونجينوس (٢٢٠–٢٧٧) وزير زنوبيا ملكة تدمر ، ومؤلف « بحث في الرائع » (وقد شك بعضهم في نسبته اليه) وواضع اسس النقد الادبي الاصولي . وموخوس الشاعر الغزلي وفرفوريوس (٣٢٤–٣٠٥) واسمه الحقيقي « مالك » وقد تعلم على مواطنيه ابولونيوس ولونجينوس الغراماطيق والبيان . واقام في رومة يلازم افلوطين ويشرح مذهب الافلاطونية المستحدثة التي تولى قيادة مدرستها بعد موت المؤسس . ومن آثاره بحوث خاصة بافلوطين وقد نشر له « التاسوعات » ودرس في صور الآلهة وبحث في عودة النفس الى الله و « بحث في الزهد » وسيرة فيثاغوروس « ومقدمة للمقولات » . وهو صاحب اول تعليق افلاطوني مستحدث على فلسفة ارسطو .

من العهد الروماني الى الصليبي

في بداية حكم اغسطس قيصر نزحت جماعات من اللبنانيين الى الولايات اللاتينية الغربية . فكان منها وكلاء تجارة ومنظمو حفلات وكينة وجنود وبلغت هذه الهجرة ذروتها ايام الاباطرة المتحدرين من الاسر اللبنانية السورية (١٩٣–٢٣٥) . فازداد انتشارهم واتسع نفوذهم الى حد جعل الكاتب

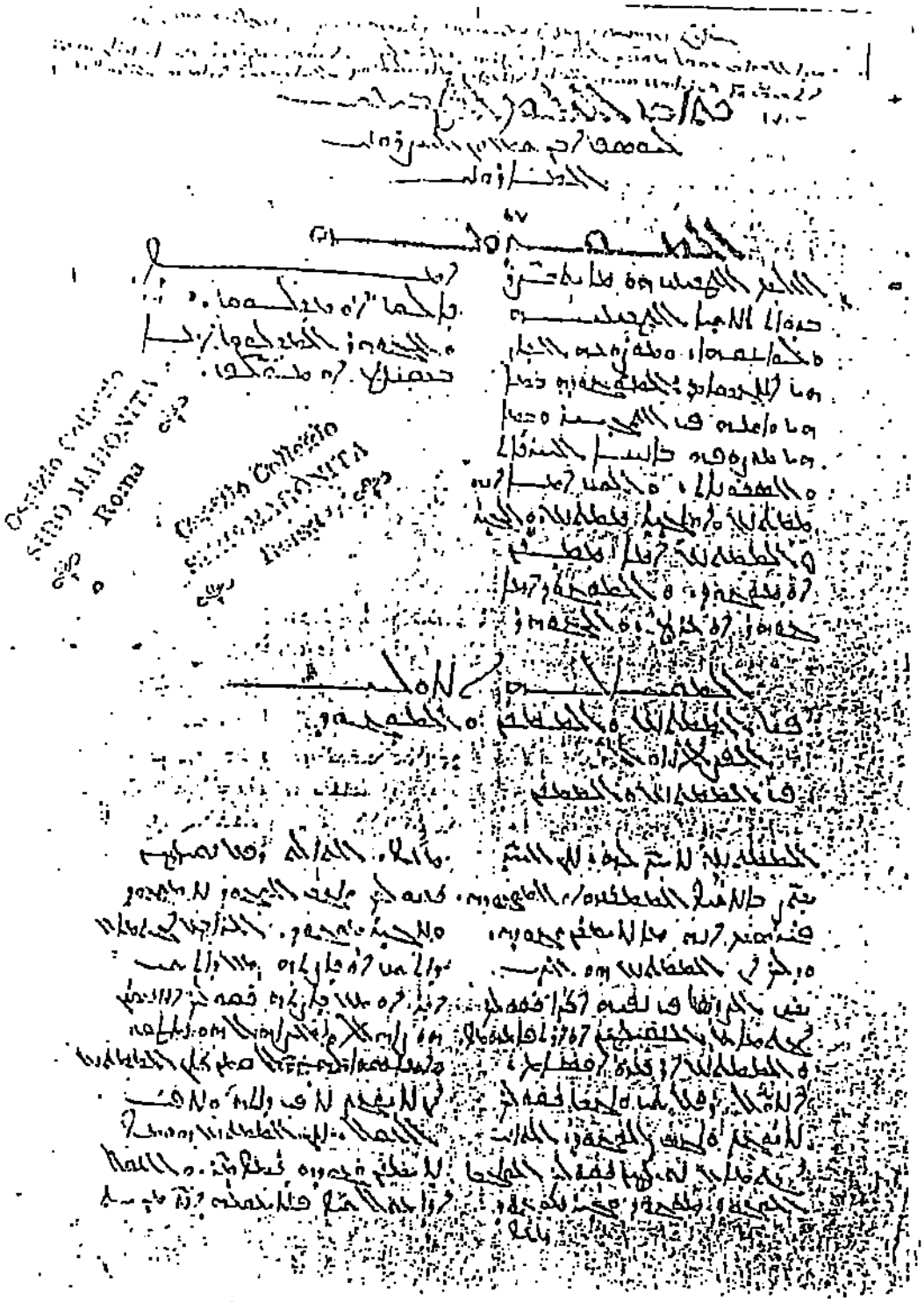

الصفحة الأولى من مخطوط مكتبة الرهبان الحلبيين الموارنة في روما

الصفحة العشرون من المخطوط

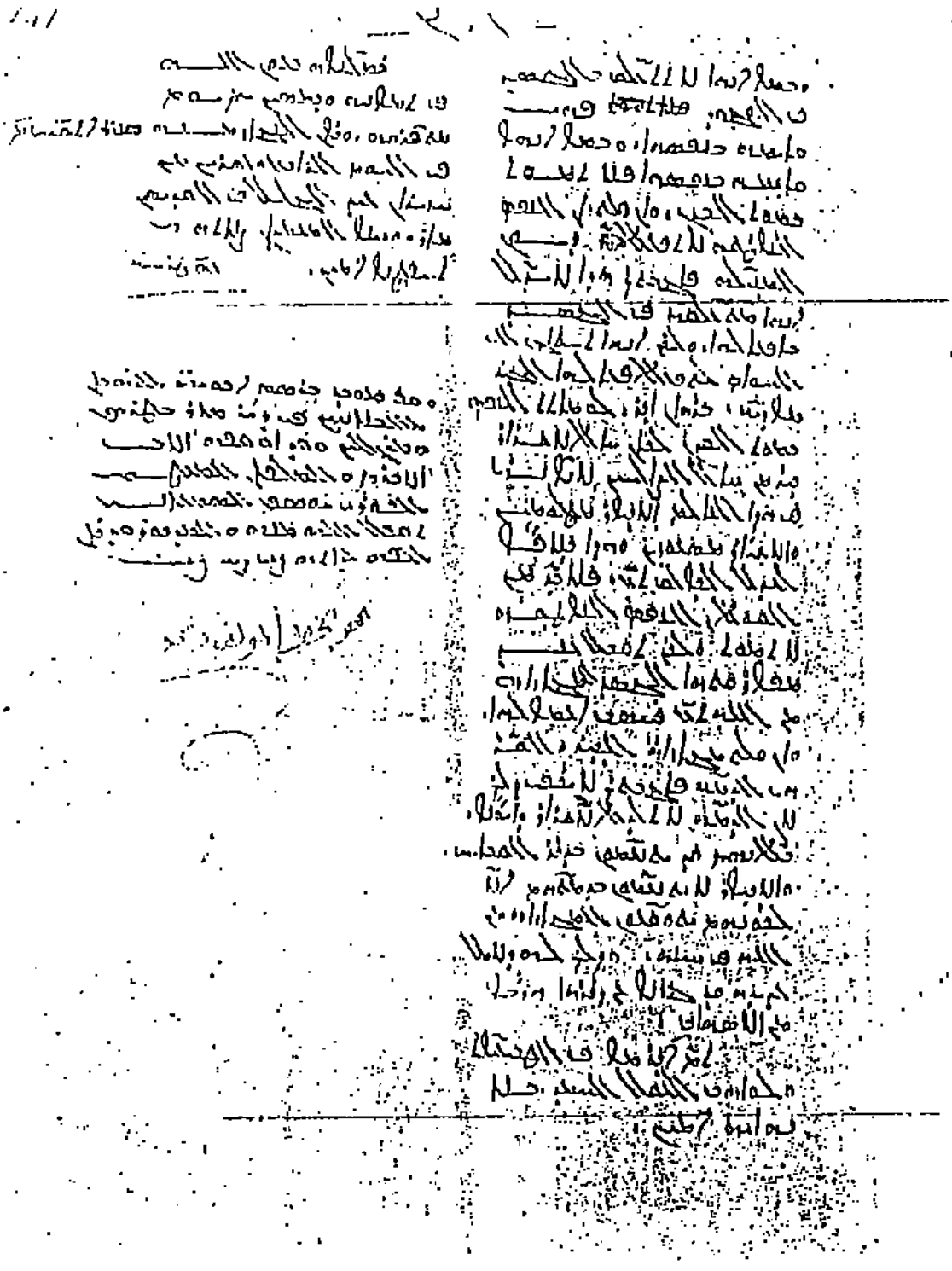

الصفحة الأخيرة من المخطوط عينه

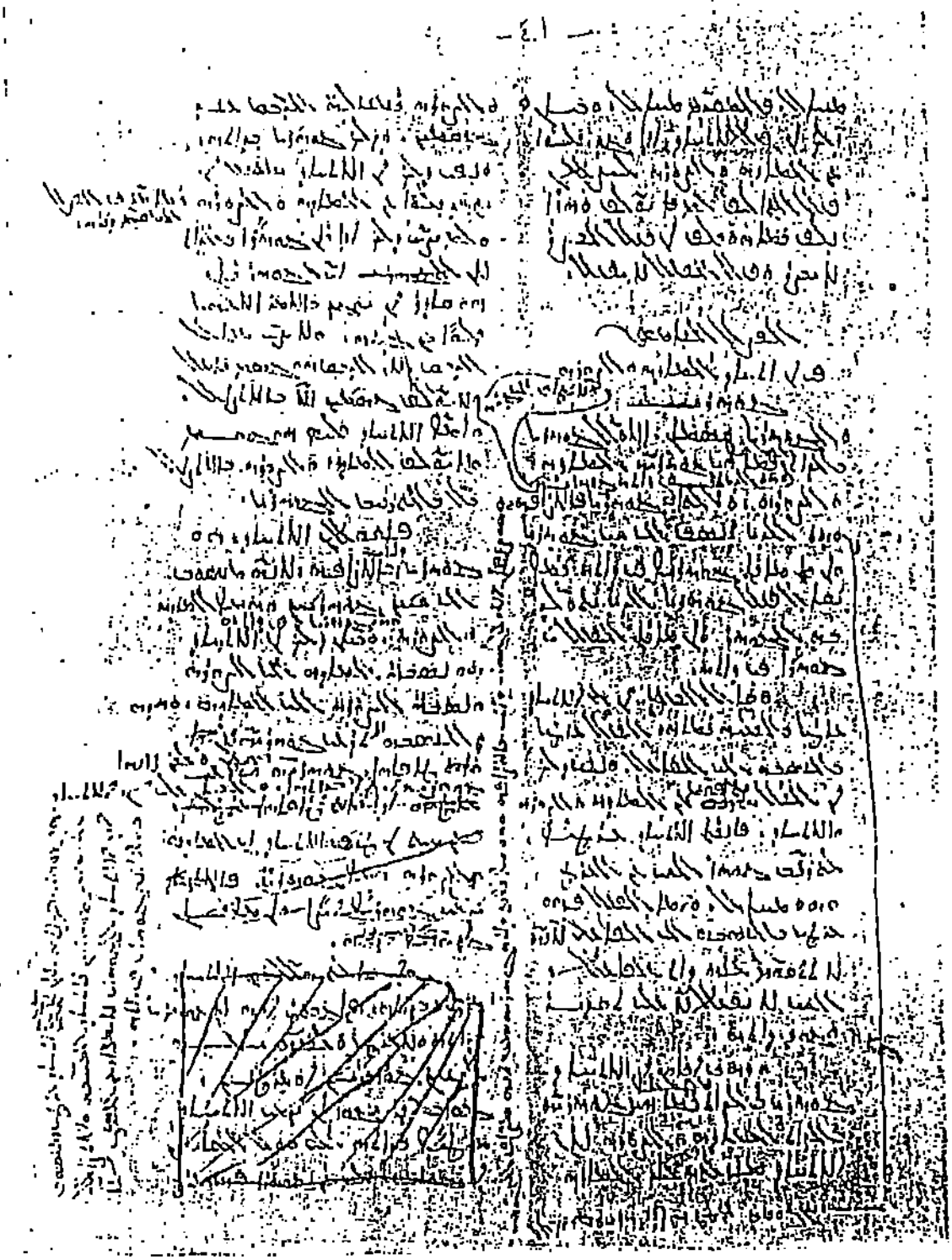

الصفحة الحادية والأربعون من المخطوط عينه

الروماني جوفنال يقول : « ان نهر العاصي (النابع قرب رأس بعلبك والمار بسوريا) يصب منذ امد بعيد في نهر التيبر جالباً معه لغته وعاداته والتيثارة واوتارها » ولا عجب فقد كانت المدن الفينيقية ، على حد قول سترابو ، اعظم مدخر للمعرفة . وقد تميزت صيدا بنوع خاص : كموطن الفلاسفة في علمي الفلك والرياضيات .

وللبرزت بيروت « بريتوس » كجزيرة لاتينية في بحر اغلينية الشرقية في القرن الاول بعد المسيح تألق بريوس في الأدب اللاتيني في روما فتصدى لنقد كبار الشعراء كفرجيل وهوراس واسهم في تركيز الادب الكلاسيكي على اسس ثابتة . وانطلق من منابر مدرسة الحقوق البيروتية فيما بعد رهط من علماء القانون وبينهم بابنيان واولبيان الشهيران اللذان اسهما في ادارة الامبراطورية الرومانية واغنيا الفقه الروماني ببحوثهما الحقوقية الاصيلة .

اما النازحون من قرطاجة (ابنة صور) فعددهم كبير حسبنا ان نذكر منهم تيرنس (١٩٠–١٥٧ ق. م.) الشاعر الهزلي الذي حذا حذو كبار المؤلفين الاغريق في مسرحياته الست واهمها « الاخوان » « والخصيان » وتميز بدقة الوصف والتحليل النفساني في اسلوب انيق ؛ والقديس اغوسطينوس ، اشهر آباء الكنيسة اللاتينية (٣٥٤–٤٣٠) ومن روائعه « الاعترافات » و « التأملات » و « النعمة » و « حرية التخمير » وقد حاول ان يوفق بين الافلاطونية والسر المسيحي وبين العقل والايمان على اعلى مستويات البحث المنطقي والفكر اللاهوتي .

ولئن لم نتبسط في درس هؤلاء الكتاب فلأننا لسنا على يقين تام من تحدرهم اللبناني مع ان المغتربين من الشاطئ الفينيقي الجنوبي كانوا كثرة واستمروا متعلقين بفينيقية حتى اصبحوا ، على حد قول سالوست : « عضد الوطن الام وموضوع اعتزازه » وكانت العلائق الدينية اشد ما يربطهم بها فكانوا يجزلون النذور والعطايا حتى ان ما كان يرسل منها الى هيكل ملقرت في صور كان يبلغ سنوياً عشر دخل قرطاجة الحكومي كما يؤكد س. جسل .

وهنيبعل نفسه بعد اموقعة زاما سعى الى التحالف مع ابناء عمومته الفينيقيين على حد ما يروي دوزي في تاريخه عن الرومان .

اما في العهد التالي : فيقول الدكتور حتي في «تاريخ لبنان » ما خلاصته : « ان اللبنانيين الرومانيين كتبوا فصلاً مجيداً في تاريخ الهجرة يليق بهم كاحفاد الفينيقيين واجداد الاجيال الحديثة فازدهرت جالياتهم في روما .

وكانت مواطن الهجرة التي تلقت الموجات الاولى الموانئ الرومانية ولا سيما بوتيولي واوستيا وسيراكوز في صقلية وبيرايوس وغيرها من موانئ اليونان وجزر الارخبيل الاغريقي. ومن هناك تغلغل المهاجرون في داخل اوروبة متبعين مجاري الانهر والطرق التجارية العمومية. وفي وادي الدانوب اوغلوا حتى سرميوم في الشمال الشرقي من يوغوسلافيا؛ وفي وادي الجيروند وصلوا الى بوردو وفي وادي الرون وصلوا الى ليون. وعثر على مزهريات تحمل توقيع صيدونية في جنوبي روسيا وعلى نقوش في مالقا (اسبانيا). وفي عام ٨١ه انتخبت الجالية اللبنانية السورية في باريس احد اعضائها اسقفاً على المدينة». وكان من نتيجة هذا الاتصال تكاثف في التبادل الفكري بين لبنان والغرب واسهام فعال في نشأة الحضارة الاوروبية في بدء القرون الوسطى على حد قول البروفسور بريبيه في دراسة له عن الهجرة السورية ـ اللبنانية الى اوروبة:

«ان التجار غير المعروفين الذين جاؤوا، بهدى الفطرة الغريقة، يسعون وراء الثروة في البلدان البربرية في الغرب قاموا بعمل خصب. حين كانت الحياة تزداد خشونة والاخلاق شراسة تحت تأثير البربرية كانت الحضارة التي اتوا بها الى اوروبة اللاتينية مبدأ رفيعاً. بفضلهم تقلص اثر البربرية في اوروبة وبتأثيرهم نما الميل الى الترف الذهني والفن والأدب هذا الميل الذي مهد للنهضة الكارولنجية. ولا يجوز ان تدرس الحضارة الاوروبية دون ان يذكر اسهام السوريين واللبنانيين فيها في بداية القرون الوسطى».

ولكن لم يبق شيء يذكر من آثار هؤلاء المغتربين الادبية.

لما انتشرت السريانية في لبنان اعتمدها الكتاب وسيلة تعبير ثم لكن اشهر من كتبوا فيها كانوا من المقيمين وقد تأثر بعض المهاجرين الى انطاكية بالتقديس اقرام السرياني وشعره الصوفي.

وفي العهد الصليبي برز كتّاب لبنانيون باللاتينية كان من اهمهم بين المغتربين وليم الصوري (توفي سنة ١١٩٠) وزير المملكة في القدس ورئيس اساقفة صور ومؤلف التاريخ النموذجي لمآثر الفرنج. واستمر نتاج اللبنانيين في مختلف الوان الأدب ممتزجاً باداب البلدان التي عاشوا فيها واصبحوا من مواطنيها على تقادم العهد وانقطاع الصلة مع الوطن الام في عهد المماليك. الى ان كانت صفحة جديدة من الاغتراب اللبناني الاطلاعي في التاريخ الحديث.

في التاريخ الحديث

اسس البابا غريغوريوس الثالث عشر الكلية المارونية في رومة سنة ١٥٨٤ فتخرج منها الكثيرون وعادوا الى لبنان واستقر بعضهم في رومة او انتقل الى ميلانو ومدريد وباريس وغير مدن فكان لهم دور بارز في ادخال الدراسات الشرقية الى معاهدها وفي نشر الثقافة الشرقية. وكانوا كما يؤكد الدكتور فؤاد افرام البستاني في اساس حركة الاستشراق.

من الرعيل الاول الذي بقي في رومة جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧–١٦٤٠) الذي اصبح ترجمان لويس الثالث عشر واسهم في تصنيف التوراة الباريسية المتعددة اللغات وكانت اول توراة ضمت ترجمات سريانية وعربية. وترجم بعض الآثار العربية التي لها علاقة بالمذهب الماروني وتاريخ لبنان الى الفرنسية والايطالية[1]. وقد شاركه في معظم اعماله ابراهيم الحاقلاني (١٥٩٤–١٦٦٤) الذي خلفه سنة ١٦٤٦ في كرسي استاذ اللغات السامية في «الكوليج رويال» الذي صار فيما بعد «الكوليج دي فرانس».

وبين الذين لمعوا في رومة يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧–١٧٦٨) الذي تولى ادارة مكتبة الفاتيكان فجعل منها اغنى مكتبات العالم بالمخطوطات الشرقية وقد خصص مضمون هذه المخطوطات، ولا سيما السريانية والعربية والعبرية والتركية والارمنية والفارسية والحبشية والملابارية في مؤلف ضخم عنوانه «المكتبة الشرقية» او الكليمانتيا الفاتيكانية باللاتينية. وترجم آثار القديس افرام الى اللاتينية وكتب فيها تاريخ مملكة تابولي وايطاليا في اربعة مجلدات ومجموعة المؤرخين الايطاليين وساعده ابن اخته اسطفان عواد السمعاني (١٧٠٩–١٧٨٢) في بعض اعماله ووضع بالايطالية كتاب اغاماة عن القديس يوحنا مارون وترجم الى اللاتينية التاريخ السرياني لابن العبري.

وفي منتصف القرن التاسع عشر اشتهر في عالم الاستشراق الفرنسي ناصيف المعلوف (١٨٢٣–١٨٦٥) استاذ اللغات الشرقية وعضو الجمعية الاسيوية في باريس وصاحب البحوث في التركية والفارسية والفرنسية ومؤلف المعجم الفرنسي التركي. ولم يقتصر اسهام اللبنانيين على الاستشراق الفرنسي والايطالي بل تعداه الى الاستشراق الاسباني والانكليزي والالماني والروسي.

وقد قام اللبنانيون خريجو مدرسة رومة بدراسات في التاريخ واللغات

(١) حفر اسمه على سبيل التقدير فوق مدخل «الكوليج دي فرانس».

الشرقية اثناء تدريسهم في معاهد باريس وروما وبالامانكا والاسكوريال واكسفورد ولشبونه ووضعوا بحوثاً عدة تناولت تاريخ الموارنة وفخر الدين واسهموا في ترجمات الى اللاتينية تتسم بالطابع اللاهوتي او بالطابع التاريخي نذكر منهم على سبيل المثال الخصروني ومرهج الباني المعروف بأسم فوستوس نيرون واضع اول دراسة جدية عن ابن وخصائصه والمطران نعمة الله ابي كرم والاب بولس مسعد .

وفي اسبانيا كان خليل الغزيري[1] والياس الشدياق وخوان سوزا يد في نشر وتحقيق وترجمة بعض المخطوطات العربية القديمة .

ومن ابرز الذين اسهموا في الاستشراق الانكليزي في هذه المرحلة التاريخية . اسعد الخياط الذي عرف بكتابه « صوت من لبنان » (بالانكليزية) وهو مجموعة مذكرات او بالاحرى سيرة ذاتية وصف فيها حياته ومغامراته بين سنتي ١٨١١ و ١٨٤٧ والاجواء الشرقية والعادات والتقاليد ودون انطباعاته بالنسبة لاتصالاته الكثيرة بمختلف الشعوب الاوروبية والعربية وقد تميز كتابه الظريف بالاسلوب المرح على عفوية وطلاقة وصراحة قال مثلاً في وصف العادات الشرقية ونقاب النساء :

« عزمت على تنفيذ العمل لاطلاق حرية السيدات بالسماح لهن ان يسهمن مع الرجال في المجتمع وقررت ان تكون عائلتي المثل الاول .

« من التقاليد الواجبة في الشرق ان يكون موعد حفلات الاعراس في الليل . فالسيدات وينقطن » العروس والرجال «ينقطون» العريس ويسيرون جميعاً امامه بالشموع . ويرافق السيدات ازواجهن مسدلات اثنية كبيرة من الشيت : قياس واحدها خمسة عشر يرداً . فتستقبلهن ام العروس وتقودهن الى مخدعها . اما الرجال فيذهبون الى ديوان العريس .

« ولما كنت قد تزوجت في الجبال في احوال شاذة ولم تكن ثمة مناسبة لمراعاة التقاليد المعروفة . قرر اصدقائي ان يطبقوها علي ولو بعد حين .

« فاجتمع جمهور من اصدقائي واتوا مع زوجاتهم ليقوموا بواجب التهنئة . فلما وصلوا الى البستان اخذ احدهم يواصل السعال تنبيهاً باقترابهم . لان السعال المصطنع عندنا هو بمثابة الأجراس الصغيرة التي يستعملها الانكليز لهذه الغاية وهو كذلك اشارة تنبيه لنساء العائلة لينسحبن الى الحجرات الداخلية عند قدوم الرجال . عندئذ اوصيت زوجتي ان تكون جريئة لاني لن احجر عليها لتستقبل صديقاتها على انفراد فقبلت على مضض وبقيت الى جانبي .

(١) وضع قاموساً بخمس لغات : العربية والاسبانية والانكليزية واللاتينية والفرنسية .

« سمعت سعادتكم للمرة الاولى فلم افتح فمي . ثم احوا وسعلوا للمرة الثانية وانا لا اتحرك ولما عيل صبرهم نادوا عالياً فاطلت عليهم من النافذة وقلت : اهلاً وسهلاً . اني متأثر جداً لحالتكم اذ يبدو لي انكم جميعاً مصابون بنزلة صدرية . ادخلوا فلعلي اتمكن من شفائكم » . وعلى هذا النحو التهكمي يستمر في سرد انطباعاته وذكرياته .

احمد الشدياق

وصرف احمد فارس الشدياق (١٨٠٤–١٨٨٧) بعض نشاطه في خدمة الاستشراق . فهو بعد رحيله من لبنان اقام في مصر تسع سنوات دارساً ، مؤلفاً ؛ ثم انتقل الى مالطة تلبية لطلب المرسلين الاميركيين ؛ فصحح مطبوعاتهم فيها طوال ١٤ سنة سافر بعدها الى انكلترا حيث صرف سنوات في ضبط عبارة الكتاب المقدس لجمعية التوراة ثم سافر الى باريس ومنها الى تونس حيث تولى تحرير جريدة الحكومة الرسمية « الرائد التونسي » . واستدعاه بعد حين السلطان عبد المجيد الى تركية فاصدر فيها مجلة « الجوائب » بمساعدة ابنه سليم ومات هناك[1] .

لقد وفرت له رحلاته هذه مادة غنية لقلمه فوصف الاوروبيين بدقة في كتابيه « الواسطة في معرفة مالطة » و « كشف المخبا » وباسلوب ساخر لاذع . ومما قاله في وصف الانكليز : « لا يكاد احدهم يضحك ضحكاً طبيعياً وانما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكم والعبوس ، فكأن الضحك منهم قوة من القوى فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان تخرج منهم تلك القوة » .

واتاحت له رحلاته الى الغرب فرصة الاطلاع على التطور فيه . فعز عليه ان يبقى الشرق راتعاً في الجهل والتقليد الاعمى : « صار اكثرنا كالقبور المكلسة بيضاء الظاهر وليس في باطنها غير الدود » . ويعزو تأخر الشرق « الى جهل عامته واستبداد خاصته وخيانة زعمائه وتعصب رؤسائه » .

بيد ان اهم آثاره هو « الساق على الساق في ما هو الفارياق » وهو سيرة ذاتية وصف فيها حداثته في لبنان ومدرسته الاولى ورحلاته العجيبة الغريبة على الطريقة الجاحظية ؛ ليس فقط من حيث التهكم بل كذلك من حيث الاستطراد للبحث اللغوي او للوصف او للنكتة . وقد قال في مقدمة الكتاب انه جمع فيه بين امرين : احدهما ابراز غرائب اللغة ونوادرها

(١) اوصى بان ينقل جثمانه الى لبنان .

والثاني ذكر محامد النساء ومذامهن . وبطلا الكتاب هما الفارياق (المؤلف نفسه وقد اشتق اسمه من فارس الشدياق) والفارياقية زوجته . ومن خلال الجدل حول مدح المرأة وذمها يعبر الشدياق عن آرائه في المرأة الشرقية والغربية وكان بعد المعلم بطرس البستاني من اول الداعين الى تعليم المرأة .

ودلالة على اسلوبه البارع نورد هذا الاستشهاد للفارياق بالنبي سليمان في افضلية الرجل على المرأة :

« قد وجدت بين الف من الرجال صالحاً . فاما بين النساء فلم اجد صالحة . فردت عليه الفارياقية بقولها : وان سيدنا سليمان وان يكن قد اوتي من الحكمة ما لم يؤته غيره . الا ان افراطه في النساء شوّش عليه الصالحة منهن من غير الصالحة . الا ترى ان بائع المسك لطول اتلافه بالرائحة الذكية تضعف منه حاسة الشم بحيث لا يعود يشم الرائحة النطيفة » .

وهذا النكتة البديعة نجد في هذا المقطع نموذجاً من اسلوب الشدياق الذي تميز بسلاسة التعبير على بساطة وبقدرة على اختيار الالفاظ التي تناسب المعنى .

وللشدياق في اللغة بحوث كثيرة منها في نقد المعاجم ومنها في البحث النحوي او البياني . وكانت مناظرته الشهيرة مع ابرهيم اليازجي مرجعاً وثيقاً في هذا الباب . وله في الشعر ديوان سار فيه على النهج التقليدي مبنى ومعنى .

الصحافة العربية

اما « الجوائب » مجلة الشدياق فقد تضمنت عدا حقولها السياسية في خدمة السلطان منبراً لاقلام معاصريه في البحوث والحكايات والمقامات والشعر وسائر الوان الأدب .

ولم تكن « الجوائب » الصحيفة العربية الوحيدة التي تولاها اللبنانيون في اوروبة : ولا « الرائد التونسي » في افريقيا الشمالية . فقد اصدر رشيد الدحداح (١٨١٣–١٨٨٩) جريدة عربية في باريس اسمها «برجيس باريس انيس الجليس» سياسية نصف شهرية راقية المستوى (عربية وفرنسية) تبحث في شؤون الشرق عامة وتتجه الى قراء العربية في فرنسا وخارجها وتترجم الكثير عن الصحافة الفرنسية . وصدرت عدة صحف عربية بعدئذ في فرنسا منها « المرصد » (١٨٩٣) ليوسف الحاج و « كشف النقاب » (١٨٩٥) لامين

رسلان و « تركية الفتاة » لامين رسلان وخليل غانم و « جريدة باريس » لجورج مسرة ونجيب طراد سنة ١٩٠٨ .

وفي انكلترا كانت ابرز الصحف العربية تلك التي اصدرها الدكتور لويس صابونجي اي « الخلافة » وكانت غايتها محاربة الخلافة العثمانية باعتبار انها مغتصبة من حقوق العرب . و « النحلة » علمية الاتجاه و « مرآة الاحوال » سياسية عامة[1] ثم « رجع الصدى » لسليم سركيس .

وظهرت سنة ١٨٨٠ في غليارى (سردينيا) جريدة المستقل ليوسف باخوس ثم انتقلت الى باريس . وظهرت في تونس « البصيرة » لنجيب ملحمة وفرج الله نمور واصدر هذا منفرداً « لسان المغرب » في طنجه وظهرت بعدها في تلك المدينة جريدة « الفجر » لنعمة الله الدحداح و « الصباح » لوديع كرم . وفي المغرب أنشأ عيسى فرح وسليم كسباني اول صحيفة واسمها « المغرب » .

لم تكن هذه الصحف واسعة الانتشار لحد يجعل لها اهمية توجيهية بالغة ، لكنها على كل حال كانت اداة تعريف بالاحوال السياسية والثقافية العامة على مستوى النخبة .

على غرار الشدياق قام بعض اهل القلم برحلات الى العالم العربي واوروبة والى الشرق البعيد في سبيل اغراض ثقافية وسياسية نخص بالذكر اثنين هما سليمان البستاني وشكيب ارسلان .

سليمان البستاني

بعد ان مارس سليمان البستاني (١٨٥٦—١٩٢٥) التدريس والصحافة في لبنان ودرس الانكليزية والفرنسية والايطالية واليونانية والتركية وألم بلغات غيرها تابع دراستها في اسفاره الستبدادية أمّ العراق وجال في جزيرة العرب واختلط بالقبائل دارساً احوالها ثم عاد الى البصرة فأنشأ فيها مدرسة وجريدة وعمل قاضياً ثم تنقل بين العراق واليمن وحضرموت فسجل بعض رحلاته في « المقتطف » وعاد الى بيروت ولكن لم تطل اقامته فيها فمضى الى الاستانة ومنها الى مصر ثم الى العراق من جديد فالهند ففارس واستقر آخر الامر على ضفاف دجلة الى ان انتدبته الدولة العثمانية لرئاسة القسم التركي في معرض شيكاغو . ولما عاد الى الاستانة وشهد مآسيها كتب « عبرة وذكرى » .

(١) كان يكتب معظم المقالات بخطه الجميل ويطبعها على مطبعة حجرية .

اولع البستاني بالشعر القصصي والاسطوري منذ حداثته . استهوته الالياذة بنوع خاص فلازمته في اسفاره « الى رؤوس الجبال وعلى متون البواخر . وفي قطر الحديد » فكانت ترجمته هذا « وليدة اقطار العالم الاربعة » وقد ظهرت هذه الترجمة مع مقدمتها الطويلة في القاهرة سنة ١٩٠٣ فاستقبلتا كحدث ادبي جبار . واشاد ابراهيم اليازجي في « الضياء » بروعة الترجمة « التي سدت ثلمة في العربية » . لكنه رآها « ضئيلة رغم اهميتها بالنسبة للمقدمة » .

تولى البستاني مناصب رفيعة جداً في الاستانة وكان على رأس وزارة الزراعة والصناعة والتجارة والمعادن يوم قررت الحكومة العثمانية بيع غور بيسان بفلسطين من شركة صهيونية فاحتج وهدّد بالاستقالة فاضطر انور باشا ان يمزق العقد فبقي الغور ارضاً عربية . وألم به داء عضال في شبخوخته فقصد الى سويسرا مستشفياً وهناك نظم قصيدتيه الشهيرتين « الداء » ثم « الشفاء » . وقال فيهما :

أنرى تسأم وعيشك بسات مرا تبتسد من لظى الآلام جمرا
وجفنك لا يذوق الغمض سهدا وقد هجعت عيون الناس طرا
ذكرت لبنان فهاج الحنين فؤادي العاني بذاك العرين
فهم قد عزّ مناه طوال السنين

وسنجد الصدى كبيرة لهاتين القصيدتين في الشعر المهجري الجنوبي .

مهما تكن اهمية الآثار التي تركها البستاني فانه يبقى في تاريخ الادب كمعرب الالياذة وصاحب مقدمتها . لقد كان اميناً للروح وللجو بقدر ما يسمح به التعريب الشعري من لغة غريبة عن الساميات كاليونانية . وقد روّض القوافي لتنسجم مع مقاصد هوميروس وايقاع شعره . فاذا هي تتغير كل بيتين او اربعة او ثمانية . اما المقدمة الطويلة المتصلة التي تشكل بحد ذاتها اثراً ادبياً مستقلاً فقد شرح فيها الالياذة ورموزها ومغلقاتها استناداً الى مئات المراجع في لغات عدة ، وناقش آراء الذين انكروا وجود هوميروس واعتبروه اسماً وهمياً لمجموعة متعاقبة من الشعراء وبرهن على وحدة شخصية المؤلف مستنداً الى الوحدة في وصف الاشخاص وفي النفس الملحمي وفي الاماكن كما في السياق المتكامل . وتناول طرق التعريب في الماضي وما يؤخذ عليها وقارن بين الالياذة والقصائد العربية القديمة فبيّن المنحول منها واسبابه واشاد بالاسواق الشعرية وفضلها في توحيد لهجات القبائل وتنقية الشعر وبفضل القرآن في حفظ العربية . وحلل اهم التراث الشعري العربي واثبت

ان معظمه دار في فلك الغنائية وما الملاحم المزعومة فيه الا مطولات تروي قصص البطولة في جو ملحمي خيالي ليس الا . وتطرق الى مناهج المولدين في تمحيص الشعر فاستوقفته براعة الاندلسيين في موشحاتهم بقدر ما استهجن تقليد المحدثين ؛ فكان في درسه التحليلي المنطقي هذا واضع اسس البحث العلمي الحديث والنقد والادب المقارن .

شكيب ارسلان

اما الامير شكيب ارسلان (١٨٦٩–١٩٤٦) ؛ الذي شغل مراكز ادارية كبيرة في لبنان فقد انتخب سنة ١٩٠٨ ؛ بعد اعلان الدستور ؛ نائباً في المجلس العثماني فاقام في استنبول وأيد العهد العثماني فنأى منه انه يخفف وطأة الظلم عن بلاده ، وحارب مؤيدي القومية العربية التي نشأت في الاصل لتحرير البلاد العربية من الطوق العثماني . لكنه بعد زوال الخلافة ومجيء اتاتورك بعد الحرب الاولى انضم الى الحركة القومية العربية التي بدأت تتخذ معنىً جديداً وجنّد بيانه المشرق في خدمتها .

وفي عهد الانتداب عاش الامير منفياً في برلين حتى سنة ١٩٢٥ يدير مجلته العربية « لواء الاسلام » ثم انتقل الى جنيف ليكون قريباً من جمعية الامم . وقد اسهم فعلاً في معظم المؤتمرات الدولية التي تناولت استقلال لبنان وسورية وفلسطين . وفي سنة ١٩٣٠ انشأ مع احسان الجابري مجلة شهرية فرنسية اسمها « الامة العربية »[1] وكان على اتصال وثيق بالصحافة في لبنان ومصر . وتنقل شكيب ارسلان في اوروبة ثم زار اميركا واتصل باللبنانيين المغتربين ليثير حميتهم للنضال في سبيل القضايا الاستقلالية .

اهم آثاره ، عدا الرسائل والمقالات الكثيرة التي تناول السياسة والنقد والاجتماع ، مخطوطات حققها . منها : « الدرة اليتيمة » لابن المقنع ، ودراسة عن شوقي عنوانها : « شوقي او صداقة اربعين سنة » ودراسات في تاريخ العرب منها « غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط » و « تاريخ العرب في الأندلس » و « الحلل السندسية في الاخبار الاندلسية » و « لماذا تأخر الاسلام » ؛ ومجموعة قصائد وطنية وغنائية .

كان شكيب ارسلان على تمسكه بالقديم ، لا سيما في مقدمات كتبه حيث يسترسل احياناً في السجع وفي التذويق البديعي ، يسعى الى مجاراة

(١) ظهرت في جنيف سنة ١٩٦٣ مجلة لبنانية باللغة الفرنسية « الافكار » لم تعش اكثر من سنة .

التطور في اختيار العبارة الرشيقة القريبة المنال ضمن حدود الاناقة . وكان يدعو الى اقتباس العلوم من مصادرها الفصية لان لا نهضة للعرب بدونها وينتقد اولئك الذين كانوا ينفرون منها « كأنها من عمل الشياطين . فيقضون اعمارهم في درس العلوم اللسانية والدينية مما لا شك في ضرورتها لانها قوام اللغة والعقيدة ، ولكنه لا يغني اصلاً عن العلوم الطبيعية التي هنك اليوم من اهلها » .

٥

وثمة كتّاب آخرون غير الذين هاجروا الى مصر والى العالم الجديد . الذين سيأتي ذكرهم في فصلين مستقلين . هاجروا الى فرنسا وانكلترا وكتبوا بلغتيها لاسماع صوت لبنان الى العالم الغربي وتوضيح قضاياه خاصة وقضايا العرب عامة فضلاً عن الاستزادة من المعرفة والانطلاق في اجواء ارحب . ومنهم من وزع اقامته بين باريس والاستانة كناصيف منعم المعلوف (١٨٢٣ — ١٨٦٥) الذي اتقن عدة لغات فترجم عن الفرنسية والتركية والانكليزية واليها ووضع معجماً بالفرنسية والتركية و « مبادئ القراءة بالعربية والتركية والفرنسية » و « مختصر التاريخ العثماني » (بالفرنسية) .

بالفرنسية

كثيرون هم الذين سافروا الى فرنسا بعد وعيل المستشرقين الاول وبرز بينهم من الكتاب والمتعلمين عدد محترم . من هؤلاء :

نجيب عازوري وقد نشر دراسة تحليلية عنوانها « نهضة الامة العربية في آسيا التركية » حاول فيها محاربة فكرة عثمنة الشرق العربي ومحو شخصيته .

ميشال سرسق وقد كتب اسطورة مسرحية بعنوان : « قسم عربي » مثلت بنجاح على مسرح الاميبغو .

بولس نجيم (وقد وقع باسم جوبلان المستعار من تبيل الحذر) وقد كتب « مسألة لبنان» ضيرت طبعتها الاولى في باريس سنة ١٩٠٨ . وهي دراسة علمية ضخمة تناول فيها واقع لبنان الجغرافي والتاريخي بتفصيل دقيق وتوقف خصوصاً عند عهد فخر الدين واوائل القرن التاسع عشر حين استعاد لبنان استقلاله الذاتي ثم عند مرحلة التدخل الاوروبي بين سنتي ١٨٤٠—١٨٤٥ واختلاف اهدافه السياسية ، ووصف المؤسسات اللبنانية القائمة في ذلك العهد والثورة الديموقراطية الاولى من نوعها في الشرق ، ونقطة ١٨٦٠ السوداء

في تاريخنا. وقد رام من كتابه لفت الدول الاوروبية الى الحقيقة اللبنانية كسباً لتأييدها استقلال هذا البلد. وتميزت الدراسة بالاسلوب التحليلي الرصين على بساطة.

خليل غانم (١٨٥٧—١٩٢٣) اسهم في تحرير «التيغارو» و«جورنال دي ديبا» في قسم السياسة الشرقية. ونشر سنة ١٨٩٩ سيرة شعرية للسيد ثم دراستين تاريخيتين «سلاطين بني عثمان» و«تربية امراء بني عثمان» وكان قد عاش في الاستانة وتولى الترجمة في وزارة الخارجية التركية ثم انتخب نائباً في المجلس فتميز ببلاغته وشجاعته. فشاه عبد الحميد فاستقر في فرنسا حيناً ثم عينته هذه الدولة سفيراً لها في تونس. وفي دراستيه يبين اسباب انهيار السلطنة العثمانية التي سميت بالرجل المريض بسبب الاستبتار والاستئثار والاستبداد واللامسؤولية على صعيد الحكام في مختلف العهود.

شكري غانم (١٨٦١—١٩٢٩) اسهم في تحرير مجلة «لاكورسبوندنس دوريون» التي انشأها مواطنه الدكتور سمنه ونشر ديواناً عنوانه «اشواك وازهار» ورواية عنوانها «دعد» مستوحاة من التاريخ العربي ومسرحيات عدة مثلت على مسرح الاوديون منها: «وردة او زهرة الحب» و«ساعة من الف ليلة وليلة» و«تيمورلنك والنسور النسعة» و«عنتر» وهي اشهرها وقد وضع موسيقاها الفنان الروسي الشهير ريمسكي كورساكوف. وقد مجد فيها تاريخ العرب وابرز عناوين حضارتهم على مستوى ارفع مما في سائر كتبه وذلك دفاعاً عن قضية تحريرهم من النير العثماني. وبلسان البطل الذي صار اسطورة عبّر المؤلف عن ارادة التحرر وعظمة التضحية في المقاومة باسلوب ملحمي بليغ.

خيرالله خيرالله (١٨٨٠—١٩٣٠): وقد حرر في «المجلة الاسلامية» وفي جريدة «الطان» الكبرى حيث تولى القسم الشرقي في عهد مديرها اندريه تارديو سنة ١٩١٠. وقد نشر سنة ١٩١٩ دراسة سياسية عن المناطق العربية المحررة وكتاباً تاريخياً عنوانه: «سوريا» ولم تكن قد توضحت له فيه الفكرة الاستقلالية كما توضحت لبولس نجيم.

وكثرت الكتب عن سوريا بالفرنسية عند ذاك وقد ربط معظمهم مصيرها بمصير لبنان باعتبار وحدة المأساة في ظل الحكم الظالم المشترك. ومن ابرز هذه الكتب «سوريا الغد» لندره مطران.

تغلب الطابع السياسي الملتزم على نتاج اللبنانيين في فرنسا حتى بداية

الانتداب الفرنسي . فجاء ادبهم نضالياً امتزج فيه البحث التاريخي بالشعور القومي وارادة التحرر واسهم فنسان جاماتي وعباس يحاني في مقالاتهما التحفية بهذه الحملة التحررية . اما في نصف القرن الاخير فتحولت اقلام الكتاب الى الادب المنطلق من كابوس الطغيان . فالشاعر الطيب شارل خوري المولود في باريس ١٩١٠ يدور في فلك الرومنطيقية العذبة حيث الكآبة تمازج الحنين الى المجهول في ديوانيه « ساعات ضائعة » و « من ضفة لضفة » (الذي توجته الاكاديمية الفرنسية) وكذلك الشاعر بول جاماتي . لكن الكآبة الرومنطيقية عند هذا تغلف مرارة عميقة . فهو في ديوانه « ريح الخريف » الذي صدر بعيد الهدنة يوم كان جو فرنسا ما زال عابقاً بالدخان الخانق يصور وحشة الانسان بعنف وثورة وفي « مقطوعة لمونيك الميتة » مرثاة مؤثرة لابنته في انطلاق العاطفة الشرقية التي لم يشعفها التطبع في الغرب . يقول فيها:

« عندما استراحت بروعة جافا
« حلّت الشيخوخة منا في القلوب »

لكنه في ديوانه « شموس » و « باريس في الثلاثينيوم » و « قصائد » استعاد صفاءه المعنوي وتغلبت النفحة الصوفية المشرقة في تاجه على عتمة اليأس .

وثمة شاعرة مغمورة دخلت حياتها في شبه اسطورة وهي ليلى سليم ملحمه دي رانيار (١٨٩١—١٩٥٥) .

ولدت ليلى في اسطنبول ثم انتقلت الى فلورنسا مع ابيها سليم باشا النقي وكان من اركان السلطنة العثمانية . بعد ثورة ١٩٠٨ . وفي سنة ١٩١٢ طلب يد « هذه الحورية الخارجة من فراديس الشرق » على حد تعبير موريس باريس . ملازم فرنسي ما لبث ان استشهد في الحرب الكونية الاولى تاركاً طفلة توأمي امها في غربتها . وبعد الحرب عادت ليلى الى فرنسا تعبر عن وحدتها شعراً فاصدرت مجموعتها الاولى « الساعات الكئيبة » روت فيها حكاية الألم . ثم تزوجت من الديبلوماسي الفرنسي ده رانيار فاشرق الوجود كما من جديد فكتبت ديوانها الثاني بلون الفرح وعنوانه « حب روما » وفيه اشارة واضحة الى نزهات عذبة في تلك الغابة الرومانية التي شاهدت « ظلين ملتصقين ماثرين معاً : بولين ده بومون والساحر » وتنقلت مع زوجها السفير في اوروبة الى حين داهمها الغسانبو في بودابست وقبض عليها . فبدأت مأساة جديدة بالنسبة للملك « العصفور الذي غنى تعبه في الاقفاص المذهبة »

كما تقول الكاتبة البلجيكية الاميرة بوبسكو . ولما اطلق سراحها بعد سنوات ثلاث عادت الى فرنسا تكتب وترسم . وتميز شعرها بالكآبة الرومنطيقية حتى في تعبيرها عن نشوة الحب :

« يا بيوتي النائية حيث تجوب ذاكرتي ...
« ايتها الجدران ! الم تبقي
« فرحة قليلاً ، وسوانسة قليلاً .
« لكيانات غيري مستوطنة ...
« كم من وداع كم من باقة كم من وليمة
« اتى عليها النسيان
« اليت قرب النهر ، بيت الشتاء
« وذاك الذي عاشت الكآبة فيه ،
« وبعد . ذاك الذي فيه بكينا
« عندما كان الاطفال يهزجون » .

لئن مارست ليلى ملحمه الادب على سبيل الهواية فان مواطنة لها مارسته ممارسة احتراف فانصرفت اليه انصرافاً كلياً جعلها بين ابرز كتاب فرنسا اليوم . انها اندريه شديد (زوجة الدكتور لويس شديد الطبيب العلامة ، عضو معهد باستور ، المعروف ببحوثه العلمية الدقيقة) . بدأت تكتب بالانكليزية فنشرت ديوانين على النسق الرمزي المستحدث باسم مستعار ثم كتبت بالفرنسية شعراً ونثراً فاشتهرت شاعرة وروائية وباحثة وكاتبة مسرح . لها في الشعر عدة دواوين ابرزها « بلد مزدوج » . ان لها لغة شعرية خاصة بها . فهي تتحرى البساطة الموحية فاذا اللغة العادية التي تناولها الاستعمال تحيا تحت قلمها من جديد في تركيب فريد موحية ابعاداً انسانية غنية .

« اذا كان الشعر لا يقلب حياتك رأساً على عقب فهذا يعني انه ليس شيئاً بالنسبة الينا » . هذا ما تقوله اندريه شديد في « ارض وشعر » . وقد حاولت ان تحقق هذا المفهوم فاذا انت بعد ان تقرأ قصيدة لها تحس حتماً ان حواراً عميقاً قام بينك وبين القصيدة وان قيمة جديدة انبثقت من تلقائها وجعلتك ترى الحياة اسمى مما هي .

واندريه شديد في قصصها تمزج الواقع بالشعر فاذا الابتداع يوحي ما يوحي المضمون وهي تستوحي موضوعاتها من لبنان ومن مصر (حيث نشأت) او من فرنسا (حيث تقيم) . ابطالها يتطورون بشكل طبيعي وهي لا تتدخل قط في توجيههم .

اهم ما يشغل اندريه شديد : كقاصة : هو الانسان في صراعه مع القدر . لكنها لا تعبر عن هذا تعبيراً مباشراً يحول الرواية عن بيئتها الخاصة الى بحث علمي . الى مرحلة اخلاقية او الى تأملات في الوجود . فروايتها « اليوم السادس » التي تجري وقائعها في مصر حيث قضت مرحلة عمرها الاولى . تدور حول عجوز مصرية تحاول ان تنتزع حفيدها : المصاب بالكوليرا : من المصلحة الطبية . حاسبة ان مجرد التسليم بنقل الطفل المريض في سيارة اسعاف قد يعني التسليم بفكرة الموت .

لذلك تبذل كل قواها . وهي فضيلة اصلاً انما عززتها ارادة المقاومة . لكي تجعل الطفل الغالي العود . يعيش حتى اليوم السادس : اي الى يوم زوال الخطر عنه حسب تأكيد الطبيب . وفي هذا السبيل تخفيه عن عيون الناس ضراً . تلازمه كالظل . تتجنب حتى ان تتطلع اليه الا لماماً : لكأنها شاءت . في لاوعيها . ان تجعله كذلك غير منظور من القدر . لكن القدر يأبى الا ان يرى المريض رغم كل شيء فينتزعه من يديها : بل يدي الحياة . فتموت العجوز معه .

وروايتها « الباقي بعد موت الآخرين » موضوعها طائرة تحطمت في صحراء افريقيا وفيها اثنا عشر مسافراً . فاستدعي الاهل الى مركز الشركة في باريس واخبروا انه لم ينج الا واحد ضاعت آثاره في الرمال . ظنت بطلة الرواية لاناً مورد ان الناجي هو زوجها بيار .وظنها كان شبه اليقين . واذ لم تسفر التحريات عن نتيجة قررت ان تجري بنفسها البحث عمن احبته حباً يفوق كل منطق وكل ألم . وهكذا تبدأ البحث اللامجدي عن زوجها عبر واحات النفور . وتنسى ان زوجها ربما غاب الى الابد اذ الحب المطلق يخلق الحياة . وتعود لاناً خائبة لكن حبها بلغ من الشدة حداً جعله اقوى من الغياب واقوى من الموت . وهكذا تنتصر على القدر في صراع عنيف .

وموضوع القدر المستبد هو كذلك المحور الذي تدور حوله رواية « يوناتان » و « النوم الطليق » و « الشاب الغني » الا انها لا تكرر نفسها ابداً . بل تجعل لكل رواية اطارها المميز رغم ان معظم مادتها مأخوذ من حياة الريف المصري وبؤسائه . فهي تصور بدقة ولباقة تلك الحياة وتعرض للقارئ نماذج شتى عن ابنائها : من الفلاح المستعبد العائش مع ماشيته : الى الاقطاعيين العابثين بمصائر « ازلاميهم » الى الشيخ والشرطي . الى كل ما هنالك من خصائص توحي ايحاءً بليغاً بمأساة البشر .

اما مجموعتها القصصية « الجلد الضيق » فهي كذلك صور عن حياة الريف في مصر . وصور من الجبل اللبناني تبرز فيها التقاليد والعادات الانسانية التي كادت المدنية الحديثة ان تقضي عليها لولا عناد المتشبثين بالارض : من الفلاح الى الراعي الى الخطاب ، وقد وجدوا فيها جذراً ثابتاً يشدهم الى الوجود .

وقد ظهرت لها في ربيع ١٩٦٩ رواية « الآخر » ويتلخص موضوعها بجهد بطولي يبذله انسان ما في سبيل انقاذ اخيه المطمور في الارض . قد رأى هذا الانسان ان حياته تستمر ناقصة ان لم يسهم في انقاذ « الآخر » وانتزاعه من القبر . فهو هكذا يخلقه من جديد والرواية ترمز الى شخصين في المطلق يفرق بينهما كل شيء : شرقي قديم قلبه قلب طفل وغربي شاب جف خياله كالشيوخ . ولكن لا عتبات العصور والثقافات ولا اللغات المختلفة استطاعت ان تقضي على الحوار بينهما لان الاخوة البشرية اقوى من اي فاصل مصطنع .

ولاندريه شديد بحوث منوعة لعل ابرزها دراستها عن لبنان وقد صورته تصويراً شعرياً انطلاقاً من واقعه التاريخي ومعطياته الحضارية ورسالته الانسانية المنفتحة على المعمور طوال ستة آلاف سنة من الوجود .

وفي الحقل القصصي برز كذلك في فرنسا فاجيه كاتشا ، وهو لبناني ، ارمني الاصل ، عاش بعد الحرب في باريس . له عدة روايات اهمها : « العين بالعين » ؛ « السارة » ؛ « وقعة الفوارس » ؛ « الاكف المشوشة » ، « لو تستيقظ شيطاناً » . انه يتوخى اثارة الاهتمام عن طريق العقدة الغريبة في تطورها على نسق افلام « هيتشكوك » .

فرواياته مجموعات لوحات في كل منها مفاجأة او اكثر . وقد تأثر بذلك من حيث اختيار المواقف الحرجة التي يجعل فيها اشخاصه ثم يدفعهم الى الذروة الانفعالية حيث يصبح الشخص مجرد هوى او شهوة عاصفة قد تكون حباً او حقداً او بغضاً . واخذ عن دوستويفسكي الترابط الخفي بين العوامل النفسية المختلفة التي تحرك ابطاله واحياناً بغير وعيهم . وهو ينجح غالباً في التحليل النفساني باسلوب سهل . وقد حدد هو نفسه اسلوبه اذ قال :

« اول ما يهمني هو تصرف الاشخاص في مواقف معينة والنتائج التي قد تتولد من الانفعالات . قبل ان ابدأ روايتي احدد لها فقط نقطتي الانطلاق والنهاية اما الباقي فيأتي عفو الخاطر ووفق تطور التسلسل الطبيعي المنطقي .

الفكرة تأتيني صدفة . وليس بين كتبي سوى رواية واحدة تعتمد على مذكراتي الشخصية هي « اعتاب الكابر يوم الاحد » . وفي هذه الرواية يصف فاهيه كاتشا المقاهي اللبنانية القديمة على الشاطئ ويصور الحياة الشرقية الطامحة الى الوجود الهادئ والتأمل في حضن الطبيعة . ولا تغيب عنه في أكثر رواياته فكرة السينما والمسرح فكأنه وهو يعدها يفكر سلفاً بتصييرها الى المسرح او الشاشة .

وانصرف الى الرواية كذلك كاتب ناشئ يمارس التدريس الجامعي في باريس هو روبير ابي راشد وقد نشر قبل سنه رواية عنوانها « المنزلة » طرح فيها مشكلة تأثير العالم الوهمي على العالم الحقيقي .

بطلة الرواية « ريجينا » تهوى محامياً اسمه انطوان . لكنها لا تستقر في حبها فلما لفظت صديقة لها ذات يوم اسم كاتب بدأ يلمع نجمه « غي ميريال » بدأت مخيلتها الخصبة ترسم حوله الاوهام . وقد عززتها احاديثها مع انطوان وكان قد عرف الكاتب من قبل كما عززتها ثرثرة الاندية حولها . وتمت الاسطورة في رأسها الى حدّ جعل الرجل اللامنظور يستولي عليها ويبعد من قلبها حبيبها الاول . وتشاء المصادفة ان تجمعها بامير احلامها في احدى الامسيات . فاذا بها تجده مغروراً خيّباً لكنها مع هذا لم تشأ أن تقضي على خيوط السراب التي نسجتها حوله . فهربت معه تاركة انطوان .

لقد صور باسلوب ساحر بارع المرأة « المغرور » التي يغريها صنم خلقته من لا شيء وتشبثت بحبه مؤثرة الوهم على الواقع كما وصف بتهكم الدعاوة المنتعلة التي تضخم الاحداث فتجعل من كاتب او فنان عادي نجماً اسطورياً .

لروبير ابي راشد ايضاً دراسة عميقة عن كازانوفا بين التاريخ والاسطورة أنالته جائزة سانت بوف سنة ١٩٦١ . وله بحوث نقدية عدة اهمها يتعلق بالمسرح المعاصر ظهرت في « النوفيل اوبسرفاتور » و « النوفيل ريفو فرنسيز » .

وثمة كتاب لبنانيون برزوا قبله في عالم البحث على اختلاف وجوههم منهم الأب ميشال فغالي الذي عني خصوصاً بالفولكلور اللبناني واللهجات الشعبية في لبنان وسورية وألّف عدة كتب منها « لهجة كفرعيدا » و« دراسة عن اثر السريانية في اللهجات العربية في لبنان » وقصص واساطير وعادات شعبية في لبنان وسورية . والاب ميشال الحايك وله عدة بحوث بالفرنسية والعربية حاول في اكثرها ان يبين النقاط المشتركة بين المسيحية والاسلام .

ويتناول بعضها الادب العربي الحديث . وله ديوان بالعربية « كهف الذكريات » فيه نفحة صوفية . وقد اسهما اسهاماً مرموقاً في الاستشراق الفرنسي .

اما مارسيل زهار فقد برز في نقد التصوير وله فيه مذهب خاص . وسيمون جرجي نشر بحثاً عن تطور الاغاني الشرقية والموسيقى العربية ودراسة تاريخية عن سورية وبحثاً عن القضية الفلسطينية في نشأتها وتطورها . وراوول مكاريوس وريمه خوام ورواد طربيه[1] وقد تميزوا بترجمة الشعر والقصص والاساطير الى الفرنسية ودراسات موسعة عن الادب العربي عامة واللبناني خاصة في مختلف عصوره[2] .

وثمة كتاب ناشئون يشقون طريقهم في الشعر والبحث بالمجلات لا سيما المجلة الشعرية الجديدة « لاديليرونت » التي اسسها قبل سنة الشاعر اللبناني الشاب فؤاد النعتر . ومنهم من نظم فترة ثم توقف مثل جويس منصور صاحبة ديوان « مربع ابيض » .

لم نذكر في هذا العرض الا ابرز الكتاب المقيمين في فرنسا . اما الذين ينشرون فيها ويسهمون في مجلاتها ، فعددهم كبير من اشهرهم : جورج شحاده ، وفرج الله حايك ، وهنري القيم وصلاح ستيه . لكننا لم نذكرهم لانهم مقيمون في لبنان ولا يعيشون في فرنسا الا فترات قصيرة .

في انكلترا

اما الرعيل الذي رحل الى انكلترا فقد سعى اما الى التجارة والصناعة واما الى طلب العلم في جامعاتها .

وقد برز بين هؤلاء عدد من الكتاب في كل لون ولا سيما في الرواية والبحث والشعر .

بين الذين قصدوا الى انكلترا للتخصص العالي فريق مكث فترة عاون فيها المستشرقين وفريق بقي هناك فمارس التعليم وكتب في المجلات . من هؤلاء البرت حوراني وقد نشأ واخوه سيسيل في بلاد الانكليز وادوار عطيه وفريد مجدلاني وادنا كحلا .

---

(١) له ديوان بالعربية عنوانه « المرايا الدائرة » .

(٢) اثناء كتابة هذا البحث ظهرت باكورة مارسيل خليل في الرواية البوليسية وباكورة جلبرت موصللي في الرواية السيكولوجية « الشبكة » وقد عبر فيها عما تختلج به النفس البشرية من رغبات وحشية تناقض الطبيعة السمحاء .

لالبرت حوراني عدة بحوث فكرية سياسية واجتماعية وتاريخية نشرها في اوكسفورد حيث يمارس تعليم التاريخ العربي والآداب الشرقية والفلسفة. من اهم كتبه «سوريا ولبنان» وهو تاريخ شامل مفصل «والاقليات في العالم العربي» و«بريطانيا والعالم العربي» و«خطر المجتمعات الكلية» و«الاسلام اليوم».

آمن البرت حوراني بحرية الفكر كوسيلة مهمة لتطوير المجتمع والانسان. واساس حرية الفكر في نظره هو معرفة الانسان نفسه كمخلوق حر مسؤول عقلاني. وهو يرى ان مبدأ السمو في المجتمع البشري «مبدأ يتعالى على الارادة الفردية وحتى الجماعية ويتخذ اساساً له شخص الفرد». وفي بحوثه يتحدث عن اثر انتشار الفكر الغربي في انماء العقيدة الديموقراطية في العالم العربي. قال في كتابه «سوريا ولبنان» حول معضلة التخريب:

«في القرن الماضي اهتزت اسس العالم العربي تحت تأثير الغرب. فالافكار الغربية التي نشئت في المدارس والكتب واخيراً في السينما غيرت مظاهر الحياة الاجتماعية. فمنافسة البضائع الغربية قضت على الحرف القديمة وفتحت آفاقاً اقتصادية جديدة واساليب مواصلات حديثة اطلقت الجماعات المحلية من اطرها التقليدية. وهددت السيارة والطائرة والسلطة المدنية حياة البداوة بالزوال».

في دراساته التاريخية لا يعنى بتسلسل الاحداث بقدر ما يعنى بمغازيها وانعكاساتها على التطور الحضاري. وكان لبحوثه عن الشرق الاوسط بوجه عام شأنها في الكشف عن واقع المنطقة وازالة اضاليل الدعاوة الصهيونية.

اما ادوار عطيه فقد نشأ في السودان: وبعد الحرب الكونية الاولى درس في اوكسفورد وقضى حياته بين السودان وبريطانيا. انصرف الى الرواية فكتب: «عربي يروي سيرته»: «لبنان الفردوس»: «حمار من الجبل»: «الخط الدقيق» و«الطليعة السوداء» وله في البحث الادبي والتاريخي مقالات ظهرت في «التايمس» الادبي و«مجلة الشرق الاوسط».

في روايته «عربي يروي سيرته» يقص باسلوب عفوي كيف نزح اهله من العكار الى سوق الغرب ثم الى السودان وكيف درس هو في مصر ثم في اوكسفورد وبعض انطباعاته في انكلترا وزواجه من بريطانية وابرز الاحداث في حياته وجولاته. وفي هذه السيرة الذاتية يتناول اثر الحضارة الغربية والسياسة البريطانية في العالم العربي. في القسم الاول حتى ١٩١٩ يتحدث عن سوريا شاملاً لبنان. ثم يميز فيما بعد. واهم ما جاء في الكتاب

عدا سيرة المؤلف : معلومات دقيقة عن الهجرة اللبنانية واسبابها وعن دور اللبنانيين في النهضة العربية بفضل انفتاحهم على العالم في اختلاف مناطقه .

في « لبنان الفردوس » يستعمل تعابير فرنسية وهو يروي قصة عشيقين بالانكليزية على نحو ما يجري على لسان بعض اللبنانيين الذين يتقنون اكثر من لغة . بطلة الرواية فتاة لبنانية تدعى فيوليت نشأت في مصر ، تحاول ان تتحرر من وصاية اهلها بعد ان اكتسبت قدراً كافياً من الثقافة فترفض الاقتران برجل اختاره لها ابواها لا لشيء الا لتأكيد ذاتيتها ، لكنها تعود عن تصلبها وتتغلب على مركب النقص بعد رحلة الى لبنان الجنة وبعد اختبارها الحياة . وفي هذه الرواية وصف شعري للطبيعة اللبنانية ساحلاً وجبلاً يظهرها بمظهر الجنة التي توحي بالسعادة وتزيل من النفس كل عقدة .

في « حمار من الجبال » تصوير لقروي مستبد يدعى فارس ديب كان ينشر الرعب في اسرته وحوله . وفرض نفسه على مواطنيه بدهائه الغريب . كان بخيلاً يستثمر اتعاب ابنائه ، لكنه وقع في حبائل راقصة شاهدها مصادفة في احد مقاهي طرابلس فافقدته اتزانه ووقاره واثارت فيه شهوة جنسية مكبوتة ادت به آخر الامر الى قتل سائحة اميركية ثم الى الانتحار .

وفي « الطليعة السوداء » وصف لحياة الطلبة السودانيين الذين يوفدهم آباؤهم ، وهم وجهاء في بلادهم ، الى بريطانيا لتلقي الثقافة العالية فيها وينتظرون عودتهم بفارغ الصبر لكي يحتلوا مراكز بارزة في الحكومة المحلية ويملأوا فراغ الانتداب البريطاني بعد زواله . بطلا الرواية امين ومحمود طالبان في اوكسفورد يتطلعان بالعقلية الغربية وتستهويهما الافكار الاشتراكية الرائجة في اوساط الجامعيين . امين يهوى بريطانية ويتزوج منها ويعزم على الاقامة في باريس ، الا ان زوجته ، وقد رأت في القرآن رسالة ، تلح عليه بالعودة الى بلاده لكي يعمل مغاً على رفع مستواها . اما محمود فيعاني من عقدة نفسية خلقيا له ابوه اذ عقد قرانه ، في غيابه ، على ابنة عمه بدرية وهي في الرابعة عشرة ولا يكاد يعرفها . يحاول ان يتهرب لكن اباه يضعه امام الامر الواقع ، اذ يأتي ببدرية الى بريطانيا ويدخلها مدرسة بانتظار اليوم الموعود لكنها تعيش غريبة هناك حتى عن « زوجها » وينتهي الامر بالانفصال . ويرجع محمود الى بلاده ويحيا حياة فاشلة . وما كانت افكاره الاشتراكية لتلقى صدى في بلاده ولا لتملأ فراغ نفسه ولا لتلبي نزعته الى اثبات وجوده بطريقة ما .

يستوحي ادوارد عطيه معظم مواضيعه من اختباراته الشخصية ويحاول ان يكون صلة وصل بين الشرقيين والغربيين عن طريق وصف العادات والتقاليد والاخلاق وشروط التفاهم والتعاون واحوار الشعر . اما اسلوبه فعفوي حي فيه دقة تحليل ووصف موثر وايجاز بليغ .

اما فريد مجدلاني المولود في بريطانيا فقد أسهم في الصحافة اليومية ودخل الجيش البريطاني واشترك في الحرب الكونية الثانية وفي معركة مونه كاسينو الشهيرة . وقد الف كتاباً ضخماً عن تلك المعركة بعنوان « الدير » روى فيه بواقعية ملحمية بطولة الجنود البريطانيين في اشد المعارك ضراوة في الحرب الاخيرة .

وعنوان « الدير » يرمز الى الدير التاريخي القائم على هضبة تشرف على مدينة كاسينو الايطالية كحصن منيع في موقع هيكل قديم لابولون وقد وصفه المؤلف بدقة كما صور بدقة كذلك فصول تلك المعركة الشهيرة التي دامت من ٢١ كانون الثاني الى ١٧ ايار ١٩٤٤ فانهزم فيها الايطاليون وانفتح امام الجيش الاميركي البريطاني الطريق الى رومة بعد اسبوعين من الانتصار الساحق .

اما ادنا كحلا (مسز خباز) فقد عاشت في لندن وانصرفت الى الشعر الرومنطيقي وقد جمعت مختارات من قصائدها في ديوان « العودة » وعناوينه كافية بحد ذاتها للدلالة على مادة وحيها نذكر منها : « المبعدة » . « وحدة » ، « نزاع الموسيقى » ، « في المنفى » « جوع » . « توسل » . « صوفية » ، انه الحنين الى وطن لا تدري اين هو وهل هو حقاً في هذا العالم ما يهز شعور هذه « الغريبة » المنهوكة الى العودة الى الينبوع . تقول في احدى قصائدها :

« صديقي ، في هذه الحياة لا تأمل بالبقاء
فالذي سار ، على طريقنا المفترقين ، باقدام غريبة
لن يجتاز بوابة القلب الحصينة
حتى آخر الزمن سنبقى في البعيد
ولن يفهم احد احلامنا ولا افراحنا ولا مخاوفنا الا اذا بكينا » .

ولا يجوز لنا ونحن في صدد الكتاب اللبنانيين المغتربين في انكلترة ان لا نذكر العلامة بيتر مدور . حائز جائزة نوبل . رغم ان نتاجه جاء في معظمه علمياً صرفاً الا ان نظرياته العلمية ارتكزت على تفكير خاص . ومعلوم ان بيتر مدور ، ولد في البرازيل سنة ١٩١٥ ثم تعلم واقام في انكلترة واشتهر

ببحوثه حول الانسجة الشعرية في الجسم . وبدراساته حول نمو الحيوانات وتغير اشكالها وله اكتشافات عدة في حقل نقل الانسجة من جسم الى آخر مع اكسابها المناعة والقدرة على الثبات . ومن ابرز بحوثه العلمية العامة تلك التي ناقش فيها آراء تيار دي شاردان في نظرية التطور فوافقه في بعضها وعارضه في البعض الآخر .

في مصر

قد لا تكون الهجرة من لبنان الى مصر اغتراباً بالمعنى الكامل نظراً للروابط الثقافية والاجتماعية والحضارية والروحية الجمة بين البلدين فضلاً عن قصر المسافة . فاللبنانيون المقيمون في مصر ظلوا على صلة وثيقة بالوطن الام لا سيما في مواسم الاصطياف . وعاشوا في بيئة لا تكاد تختلف عن بيئتهم واستمروا في ممارسة لغتهم العربية المشتركة وعاداتهم . وكذلك شأن الذين اقاموا في سائر البلدان العربية القريبة .

بدء الهجرة الى مصر

عندما رقي عبد الحميد الثاني العرش العثماني سنة ١٨٧٦ وعد طلاب الاصلاح من مختلف الولايات باعلان الدستور . فبرّ بوعده فعلاً وانشأ مجلساً نيابياً . لكنه ما لبث ان رجع عن هذه الظاهرة التحررية بعد اربعة شهور وامعن في الظلم كاسلافه فقيّد حرية القول والتفكر والتعبير واخرس صوت الصحافة حتى لم يبق من الجرائد العربية الا تلك تطنّت بحمده وتسبيحه او تحاشت الخوض في اي شأن سياسي . وقد سجّل التاريخ بين ضحاياه على اغواد المشانق ستة عشر صحفياً معظمهم من لبنان .

كان من الطبيعي ازاء هذا الطغيان المستحل ان يهرب المثقفون فوجاً بعد فوج اما الى مصر ، وكانت تنعم بحرية نسبية ، واما الى اوروبة . وكان اللبنانيون قبل ذلك العهد يؤمون وادي النيل باعداد محصورة في سبيل التجارة[1] . بين ابرز النازحين الى مصر قبل الحرب الاولى ، من حملة القلم سليم وبشاره تقلا ، اديب اسحق ، رشيد شحيل ، نجيب وامين الحداد ، عزيز الزند ، عبده بدران وسبع شميل . وقد اقاموا في الاسكندرية . يوسف الخازن ، يعقوب حروف ، انيس خلاط ، فارس نمر ، شاهين مكاريوس ،

(١) سافر بعضهم الى مصر في القرن الماضي لدراسة الطب في القصر العيني .

ابرهيم اليازجي . سليم عنحوري . سليم فارس . جرجي زيدان . امين وشبلي شميل . سليم سركيس . ابرهيم نجار . بشاره زلزل . انطون الجميّل . داود بركات . الياس زياده ونعوم مكرزل وقد اقاموا في القاهرة[1] . وكان قد سبق هذا النزوح اسكندر شلهوب فأسس سنة ١٨٥٧ صحيفة « السلطنة » اول صحيفة لبنانية في الخارج .

ثم جاء خليل جبرائيل الخوري صاحب « حديقة الاخبار » سنة ١٨٥٩ واقام خمس سنوات يؤلف كتاباً عن مصر بناء على طلب الخديوي . وكان هذا الصحفي يقضي معظم اوقاته في سوريا حيث كان معتمد السلطان ثم مدير المطبوعات .

وكانت زينب فواز (١٨٤٦–١٩١٤) رائدة في حركة تحرير المرأة عن طريق تعليمها على نحو ما قال به المعلم بطرس البستاني في لبنان . فكتبت في الصحف المصرية « النيل » و « النواء » مقالات جريئة ونشرت مسرحية « الهوى والوفاء » وقصة « حسن العواقب او غادة الزهرة » و « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » لافتة انظار المثقفين الى طاقات المرأة المتعلمة .

ولكي تكوّن فكرة واضحة عن مدى اضطهاد الصحافة في لبنان في عهد « السلطان الاحمر » نعود الى ما رواه سليم سركيس يوم كان محرراً في جريدة « لسان الحال » سنة ١٨٧٧ فضربه مراقب المطبوعات بالنفق وهدده بعقوبة اشد : « لما ضايقني المكتوبجي وضجرت من المراقبة وجدت انه لا ينجيني من صرامته الا الاكتفاء بمديح السلطان او بالتحدث عن مالية الدولة او جندیتها مما اكون قد هيأت قبلاً لهذه الغاية » . وبعد ان تحمل مثل هذا الضيم طوال خمس عشرة سنة حمله اليأس الى الرحيل .

الاسهام في النهضة

في مصر اسهم اللبنانيون اسهاماً رئيسياً في حركة التجدد الفكري والنهضة الصحفية فاكملوا محاولات رفعة الطهطاوي في تعريب التراث الغربي وواصلوا ما كانوا يقومون به في لبنان مع مواطنيهم في تطوير اللغة العربية وفي التصدي لقضايا العصر على اختلاف الوانها . وكانت الصحف التي اسسوها منبر هذه الحركة الثورية . واهمها «الاهرام» و « المقطم » و« القاهرة » و «المقتطف» و « الهلال » و« لسان العرب » و « روز اليوسف » و « العروسة » و «البيان»

(١) لحق بالادباء والعلماء اللبنانيين الذين هاجروا الى مصر التجار واصحاب الاعمال .

و « الشعار » و « البستان » و « الزهور » و « النهضة » و « المصور » و « المصري » و « الاثنين » .

واول صحيفة لبنانية صدرت في مصر واطولها عمرًا ، لانها ما تزال مستمرة في صيغة جديدة ، هي « الاهرام » التي اصدرها سليم وبشاره تقلا في الاسكندرية في ٥ آب سنة ١٨٧٦ اسبوعية تظهر كل سبت في اربع صفحات وقد جاء في عددها الاول « هذا هو العدد الاول لجريدة الاهرام ، المرجو بعناية الحكومة السنية ، والمستعدة الاستعداد التام لان تجعل من يتصفح صفائحها واثقاً بما يطالعه ، لانها تعاني البحث لتقف على الفوائد الصحيحة ، فتوفي بحقوق الجرائد وتكسب قبول الجمهور » واصدرت مع الجريدة داراً للنشر .

ولم يكن من السهل عندئذ نيل رخصة باصدار جريدة وقد جاء في الطلب المقدم لهذه الغاية : « الجريدة الملتمس انشاؤها تحتوي التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية ولا تتعرض مطلقاً للامور السياسية » .

ومع « الاهرام » الاسبوعية ظهرت صحيفة يومية باسم « صدى الاهرام » في ٣ ايلول سنة ١٨٧٦ كانت تنشر بنوع خاص انباء الحرب الدائرة في البلقان . وقد اصدر الخديوي اسماعيل امرًا بتعطيلها بعد سنتين لانها انتقدت حكمه وانتصرت للفلاح المظلوم وامر بالقبض على صاحبيها ثم افرج عنهما بعد وساطة فعالة . . . . . .

وفي سنة ١٨٧٧ اصدر سليم وبشاره تقلا جريدة اخرى باسم « حقيقة الاخبار » ثم جريدة « الوقت » التي اقفلت في اثناء الثورة العرابية . وفي سنة ١٨٨٠ صدرت « الاهرام » يومية سياسية تجارية ادبية فكاهية وشعارها « انها لا تخلع على احد نفوذًا ليس له . ولا مدح بلا حق ولا طعن بلا مبرر » . وعلى اثر وقفتها الجريئة مع الثورة العرابية عطلت شهرًا كاملاً واحرقت دارها بعد قليل فظهرت جريدة « الاحوال » بعد اسبوع من توقيف الاهرام لكنها لم تستمر .

بيد ان احراق الاهرام لم يقض عليها ، بل كان سبيلاً لتجديد معداتها وبعثها اشد حيوية من ذي قبل على رغم المشقة . ولما مات سليم تقلا سنة ١٨٩٢ واصل المهمة شقيقه بشاره وكان معاونه الاول .

وفي اول تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ صدرت الاهرام في القاهرة واستمرت . وصدرت الاهرام في الاسكندرية بحجم صغير . وبعد حين ظهرت طبعة فرنسية باسم « البيراميد » .

كان تأسيس الجريدة في ذلك الوقت ضرباً من المغامرة ليس فقط بالنسبة لسيف السلطة المسلط على الدوام بل لضيق وسائل العمل والمجال. وقد كتب بشاره تقلا في مذكراته يقول:

«كنت اطوف على الناس صباحاً، اتعرف اليهم. واعرض عليهم الجريدة. ثم اقصد احد مقهيات القبيرة فأول ما اطلب جريدة اوروبية اعرب اهم اخبارها ومقالاتها اذ لم يكن في وسعنا ان نشترك في جرائد غربية توفيراً. فاذا ما فرغت من الترجمة اتيت الى الادارة ونظرت في حسابها من دخل وخرج واشتغلت بالتصحيح وكتابة بعض الحوادث. ثم جلست اعاون الفعلة على طي الاعداد وتبيتها للتوزيع. وكنت اتناول غدائي في الغالب وانا بين صحيفة اطويها ولقمة ازدردها. على انني كنت اشارف من وراء هذا العناء الجم اقبالا ونجاحاً».

وما صحّ في «الاهرام» صحّ كذلك في سائر الصحف.

ومات بشاره تقلا في سنة ١٩٠١ فانتقلت ملكية الاهرام الى ولده جبرائيل وهو في العاشرة فتولى تحريرها داود بركات وكان قد رئس تحرير «المحروسة»[1] وانشأ «الأخبار» مع الشيخ يوسف الخازن. وفي عهده تطورت الاهرام وكبر حجمها وتنوعت موضوعاتها واصبح لها مراسلون في اوروبة والشرق وخلف داود بركات في رئاسة التحرير انطون الجميل ثم عزيز مرزا.

وكانت الاهرام منذ نشأتها حقلاً رحباً لاقلام الناشئين من الادباء والمفكرين المصريين واللبنانيين على السواء[2]. فالشيخ محمد عبده واقفها منذ سنتها الاولى واطل منها في بداية عهده الكتابي وكذلك مصطفى كامل وخليل مطران وشبلي الشميل وطانيوس عبده. ومن ابرز الذين اسهموا في تحريرها نجيب الحداد واحمد شوقي وحافظ ابرهيم وعباس العقاد ومي زيادة ويوسف البستاني وطه حسين واحمد الصاوي واميل الخوري وبركات بركات.

بعد الاهرام صدرت في القاهرة سنة ١٨٩٥ مجلة «المقتطف» التي انشأها في بيروت يعقوب صروف وفارس نمر سنة ١٨٧٨ تذوة للعلم الحديث في شقيه النظري والتطبيقي وللمذاهب الفلسفية والفكرية على اختلافها. ولم تكن مهمة هذه المجلة في البدء سهلة ابداً لا في خلق الجو العلمي المؤاتي لانتشارها ولا في ايجاد وسائل التعبير الملائمة في العربية.

(١) اسسها عزيز المزد ثم انتقلت ملكيتها الى الياس زيدان راشد مي.
(٢) انشأت داراً للشعر.

كانت العلوم في اول انتشارها في الشرق عند ذاك تطغى على حقائقها الخرافات الشائعة والسذاجات المتوارثة . فكان على رواد تعميم الحركة العلمية : في بادئ الامر ، ان يمهدوا السبيل في القضاء على المعتقدات الشعبية الراسخة وسوخ تعاليم الدين مثل عملية السحر واسطورة الجن والجن . فثارت ثائرة المتشبثين بالخرافات ، وما كان اكثرهم ؛ الا ان المؤمنين برسالة العلم واصلوا طريقهم فأثروا ، مع الايام ، في ذهنية الجمهور وذللوا مشكلات التعبير باعتماد الطرق التي انطلقت من النهضة اللغوية في لبنان[1] . فاستحداث الالفاظ اما اشتقاقا واما قياساً واما ابتناساً واما تعريباً حرفياً . وهكذا درج استعمال معظم الالفاظ المألوفة اليوم في البحوث العلمية والفلسفية والتقنية .

الا ان مجلة المقتطف الشهرية ، على تطورها السريع ما كانت لتشبع تهم مؤسسيها الى النشاط الصحفي فاصدروا مع شاهين مكاريوس جريدة يومية باسم « المقطم » سنة ١٨٨٩ وانصرف صروف وحده الى « المقتطف » بينما تولى زميلاه الصحيفة الجديدة في تعاون وثيق معه فما لبثت هذه ان اثبتت وجودها الفعلي وصارت تنافس الاهرام في غنى المادة وسعة الانتشار وستري التحرير وحتى في الاعتدال بالرأي اكثر الاحيان .

وكانت المقطم اولى جرائد ثلاث في التسعينات منع دخولها الى تركيا ؛ على حد قول سليم سركيس ، « لانها صادقة حرة تقول الحق » . اما الاثنتان الباقيتان فيها « لسان العرب » و « الرأي العام » . لكن هذه الصحف — يضيف سركيس — « لم تكن متخصصة للمباحث الحرة العثمانية وكان الكتاب في اكثر مقالاتهم يحومون حول النقد » . لذلك انشأ « المشير »[2] فما ان ظهر العددان الاولان حتى صدر امر من الاستانة بوجوب محاكمة المؤسس سركيس وحجز املاكه وقضي عليه بالاعدام ثم ابدل الاعدام بالنفي المؤبد . ولا يخفى ان « لسان العرب » التي انشأها نجيب وامين الحداد وعبدو بدران كانت تحارب سياسة عبد الحميد على غير هوادة وكذلك « الرأي العام » . ورغم هذا لم يكن سليم سركيس راضياً كفاية عنها بل كان يطمح الى عنف اشد وهذا ما حاوله في جريدته .

---

(١) يعود الفضل الاكبر في هذا المجال لبطرس وسليم البستاني وابرهيم اليازجي .

(٢) تصح في سليم سركيس كلمة فيليب حتي : « اينما حل اللبناني حل معه مطبعته ومطبخه ومعبده » فهو لما ترك « لسان الحال » في بيروت هربا من التفتيش اسس « المشير » في القاهرة ثم « رجع الصدى » في لندن ثم « الزاوي » في نيويورك ثم « البستان » في بيطن .

تولى خليل تابت ادارة « المقتطف » سنة ١٩٠٨ ثم رئس تحريرها بعد خمس سنوات واستمر حتى سنة ١٩٤٨ فخلفه ابنه كريم الذي ادار « المصري » فيما بعد . وكان خليل قبل ذلك يدير في الخرطوم جريدة « السودان » التي اسسها مع فارس نمر ناطقة شبه رسمية باسم الحكومة « باللغتين الانكليزية والعربية » وكان يعاونه لبيب جريديني . وبعد وفاة يعقوب صروف ادار المقتطف ابن اخيه فؤاد وكان قد تخرج عليه . اما المقطم فقد اصبحت بعد سنة ١٩١٩ ناطقة شبه رسمية بلسان الوفد المصري واستمرت الصحيفتان حتى سنة ١٩٥٢ .

في سنة ١٨٩٢ انشأ المؤرخ جرجي زيدان الذي مارس الصحافة في المقتطف مجلة « الهلال » شهرية ثقافية عامة عززت الحركة الأدبية لا سيما وان دارًا للنشر نشأت معها . وتولى « الهلال » بعد مؤسسها ولداه اميل وشكري فاصدرا عدة مجلات في ابواب متنوعة منها : « الاثنين » و« المصور » و « حواء » و « ايماج » (بالفرنسية) .

واستمرت دار « الهلال » في طليعة دور النشر الى ان نافستها دار « المعارف » التي اسسها اللبناني نجيب متري وكان لها مجلة ادبية « الكتاب » استمرت فترة قصيرة . ويروى عن « الهلال » انه لما احتفلت بعامها الرابع عشر سأل امين الغريب صاحبها هل سيستمر في تسمية الهلال فاجابه نعم لكي يبقى قابلاً للنمو . فلو دعي بدرًا لابتدأ في النقص .

ادت الصحافة اللبنانية في مصر خدمة جليلة للعمل الصحفي بوجه عام اذ اطلقته من النطاق الاقليمي الى الآفاق العالمية وطورت وسائله الفنية ووسعت ابوابه وحسنت اساليبه . وقد اسهمت اسهاماً كبيرًا في معركة الحريات الفكرية والسياسية والاجتماعية اذ ساعدت الحركات التحررية في مصر نفسها وفي لبنان وفي اكثر الولايات الخاضعة للطغيان العثماني فكانت منبرًا صادقاً لنشر مبادئ حزب « تركيا الفتاة » ولاذاعة افكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وانصارهما في التطور الاجتماعي الديني ولدعم حملة قاسم امين ومن معه من اجل تحرير المرأة الشرقية . وفي جملة القضايا التي ساندتها هذه الصحافة قضية الحركات السرية التي قامت في لبنان سنة ١٩٠٩ دفاعاً عن كيانه بعد ان عزم الباب العالي على ادغامه في الولايات وكان من نتائج هذه الحملة تأسيس حزب الاتحاد اللبناني في القاهرة والاسكندرية وشعاره المطالبة بحقوق لبنان ناجزة في الاستقلال . وكان اوغست باشا وداود

بركات واسكندر عمون ويوسف السودا وانطون الجميل من الهم قادته. وفتحت الاهرام واكثر الجرائد صدرها لنشاط هذا الحزب ومهدت لتعاونه مع الجمعيات المماثلة في اكثر المهاجر اللبنانية.

وعدا هذا قامت الصحافة بمهمة اطلاق الحركة العلمية والثقافية والادبية والفنية فكثرت المجلات المعنية بهذه الشؤون حتى الصحف السياسية اليومية خصصت حقولا واسعة لشؤون العلم والفكر والجمال. فاكثر رجال القلم الذين ظهروا في مصر من لبنانيين ومصريين وسوريين مدينون لها في نشر بواكيرهم وحتى جل انتاجهم. من «البيان» استأنف ابراهيم اليازجي وثبته. وفي «التقدم» و«مصر» بدأ اديب اسحاق حياته الادبية ومن «المقتطف» ظهر الصرافان يعقوب وفؤاد وفارس نمر وجرجي زيدان ومن «الشفاء» اطل شبلي الشميل ومن «الاهرام» طلع فرح انطون ونجيب الحداد وخليل مطران وطانيوس عبده وحبيب جاماتي وكوكبة من الأدبـــاء. وفي «المقتطف» و«الهلال» و«المحروسة» شقت لي زيادة طريقها. وكانت «الزهور» منبر امين تقي الدين وانطون الجميل.

سنتناول بكلمة كلا من الادباء البارزين الذين عملوا في غير حقول الصحافة، مع عملهم الصحفي.

ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ – ١٩٠٦)

اشتهر في لبنان صحفياً ولغوياً وشاعراً لا سيما في تطوير اللغة العربية وتبسيط العلوم في مجلتيه «الجنان» و«الطبيب». لكنه ما استطاع ان يتحمل قيود الحرية طويلاً لا سيما بعد ان تطلعت «الجنان» سنة ١٨٨٦ فرأى ان ينتقل الى مصر ويواصل رسالته الصحفية في خدمة نشر العلم. فسافر سنة ١٨٩٣ الى اوروبة واستقدم منها ادوات طباعية حديثة واطلع فيها على التطور الصحفي ثم عاد الى القاهرة فأسس مطبعة «البيان» مع رفيقه الدكتور بشاره زلزل ثم اصدرا مجلة «البيان» سنة ١٨٩٧ التي لم تعمر اكثر من سنة فأنشأ اليازجي وحده مجلة «الضياء». وكانت المجلتان منبرين مهمين لانطلاق مواهب الأدباء الناشئين جلّى فيها المؤسس ببحوثه اللغوية والتاريخية المعمقة كما يبدو من خلاصة بحثه حول النينيتيين:

«مما لا ينكر ان النينيتيين كما كانوا قادة الملاحة واساتذة الصناعة في تلك العصور فقد كانوا ائمة العلوم والفنون وملقني العقائد الدينية والفلسفية

وعنهم أخذ اكثر الامم المعاصرة لهم ، ولا سيما اليونان : لما كان بين الامتين من قرب الجوار وكثرة المخالطة . ولذلك فانك قلما تجد معبوداً للفينيقيين او اسطورة دينية او ذكر من اشتهر باختراع او عمل عظيم الا ما تجد ما يقابله في عقائد اليونان وبروياتهم : مع تبديل صور الوقائع والاسماء والخلط بين ما اصله فينيقي وما اصله يوناني » .

اما في بحوثه اللغوية وقد سار فيها سيرة ابيه الشيخ ناصيف فكان بارعاً مجيداً في التحليل . كان يرى في المجاز ميزة خاصة بالعربية بقدر ما يلجأ الكاتب اليه ينجح في تعبيره . وكان على تمسكه بالتراث يقول بتشذيب العربية من شوائبها لكي تسهل منالا . فهو ما كان ليؤمن بعصمة القدامى عن الخطأ وما كان بالتالي ليوفر شاعراً : حتى اباه : من نقده .

كان همه ان تجاري اللغة العربية عصرها فلا يضطر الباحث الى ان ينصرف عنها لسبب ضيق مجالها : فراح يدرس اساليب تطويرها راجعاً الى علاقاتها بسائر اللغات السامية والى كيفية تطورها وتطور سائر اللغات العصرية . وكان على يقين بان الاشتقاق مورد خصب لتوليد الالفاظ فاندفع في حقله يخلق وينحت الالفاظ الجديدة والمصطلحات العلمية بوحي المنطق .

(البقية في العدد القادم)